١. الأحوال في جزيرة العرب

لم تكن القبائل العربية الجاهلية المتناحرة، تعيش أيّة حضارة، ولم تكن تمتلك أيّة تعاليم وقوانين وأنظمة وآداب قبل مجيء الإسلام، فقد كانت محرومةً من جميع المقوّمات الاجتماعية التي توجب التقدّمَ والرقي، ولذا فلم يكن من المتوقع أن تصل إلى تلك الذرى الرفيعة من المجد والعظمة، ولا أن تنتقل من نمط الحياة القبلية الضيقة إلى عالم الإنسانية الواسع و أُفق الحضارة الرحيب، بمثل هذه السرعة التي وصلت إليه، والزمن القصير الذي انتقلت فيه.

ويمكننا أن نقف على وصف دقيق لحالة العرب قبل الإسلام، من خلال مصدرين إسلاميين أساسيّين، وهما:

١. القرآن الكريم، وهو خير مرآة تعكس أحوال العرب وأوضاعهم بالدقّة والشمولية.

٢. ما صدر عن الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة في وصف الحالة قبل الإسلام.

فقد ورد فيهما تصريحاتٌ ونصوصٌ صريحة تكشف عمّا كان عليه العرب في الجاهلية من سوء أحوال، وأوضاع، وأخلاق في جميع الأبعاد والأصعدة. وبالرغم

من أنّ العرب من ولد عدنان قد اتّصفوا بصفات حسنة، إذ كانوا يكرمون الضيف، وقلّما يخونون الأمانة، ويضحّون في سبيل المعتقد، ويتحلّون بالصراحة الكاملة، إضافة إلى براعتهم في فن الشعر والخطابة، وكونهم يضربُ بهم المثل في الشجاعة والجرأة، إلاّ أنّهم إلى جانب كلّ ذلك، كانوا يعانون من مفاسد أخلاقية تطغى على ما لديهم من كمال وفضيلة.

فالمجتمع العربي وخاصة منطقة الحجاز لم تقم فيها حضارة،أو أنّه لم يبق أي أثر من هذه الحضارات فيها إلى ما قبل بزوغ الإسلام، وقد شاعت فيه أخلاق وعادات كان أبرزها:

ـ الشرك في العبادة، حيث عبدوا الأصنام والأوثان والنجوم.

ـ إنكار المعاد، أي عودة الإنسان إلى الحياة في العالم الآخر.

ـ هيمنة الخرافات، التي كانت تكبّل عقول الناس في المجتمع، حيث تركزت فيها، فكانت سبباً قوياً في تخلّفهم، وسداً منيعاً في طريق تقدّم الدعوة الإسلامية، فيما بعد، ممّا جعل النبي ﷺ يعمل بكلّ طاقاته وجهده في محو وإزالة تلك الآثار الجاهلية، والأفكار والمعتقدات الخرافية.

ـ الفساد الأخلاقي، مثل انتشار القمار ـ الميسر ـ والخمر و الزنا واللواط والبغاء.

ـ وأد البنات، وهي العادة القبيحة التي اعتبرها القرآن الكريم جريمة نكراء لا تمر في الآخرة بدون حساب شديد.

ولذا فإنّ المرأة كانت محرومة من جميع الحقوق الاجتماعية حتى حقّ الإرث، كما عدّها المثقفون من الحيوانات تباع وتشترى، وجزء من أثاث البيت. وكان

الرجل يتزوج بزوجة أبيه متى طلقها أو بعد وفاته، و ربما تناوب الأبناء على امرأة أبيهم واحد بعد واحد، كما كان الرجل يرث امرأة من قرابته إذا مات عنها، مثلما يرث أمتعة المنزل، إضافة إلى أنّهم كانوا يورثون البنين دون البنات.

ـ تناول الدم والميتة والخنزير، وأكل الحيوانات التي يقتلونها بقسوة.

ـ النسيء، وهو تأخير الأشهر الحرم، كان يقوم به سدنة الكعبة أو رؤساء العرب، عندما كانوا يقررون استمرار الحرب و الغارات في الأشهر الحُرم.

ـ الربا، الذي شكّل العمود الفقري في اقتصادهم.

ـ النهب والسلب، فقد كان انتهاب ما في أيدي الناس، والإغارة والقتال، من العادات المستحكمة عندهم، حتى إنّ بعض حروبهم كانت تمتدّ إلى مائة سنة أو أكثر، حيث كانت الأجيال تتوارث تلك الحروب، وقد بلغ ولعهم بالقتال وسفك الدماء أن جعلوها من مفاخر الرجال.

ـ أمّا عن الجانب العلمي والثقافي، فإنّ أهل الحجاز وُصِفوا بالأُمّيين، فلم يتجاوز عددُ الّذين عرفوا القراءة والكتابة في قريش ما قبل الإسلام عن(١٧) شخصاً في مكة ، و (١١) نفراً في المدينة المنورة.

ومن ذلك يمكن القول أنّ تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده،تاريخان على طرَفي نقيض: الأوّل جاهلي ووثني وإجراميّ، والثاني تاريخ علم ووحدانية وإنسانية وإيمان.

ومن التخلّف والانحطاط في الأوّل، يمكن معرفة مدى تأثير الإسلام وعظمة التعاليم الإسلامية في جميع المجالات والحقول المعيشية. فكيف تحقق ذلك

التطور العظيم لهؤلاء العرب الجاهليّين في الجزيرة العربية، في حين لم يستطع عربُ اليمن الذين امتلكوا الشيء الكثير من الثقافة والحضارة، وعاشوا حياة حضارية متطورة، أن يصلوا إلى هذه النهضة الشاملة، أو تقيم مثل هذه الحضارة العريضة، أو عرب الغساسنة الذين جاوروا بلاد الشام المتحضرّة، والذين عاشوا تحت ظلّ حضارة الروم، أن يصلوا إلى تلك الدرجة من الثقافة، أو عرب الحيرة الذين عاشوا تحت ظل إمبراطورية الفرس أن ينالوا مثل ذلك الرقيّ والتقدّم، في الوقت الذي تمكّن فيه عرب الحجاز من تحقيق تلك النهضة الجبارة، وورثوا الحضارة الإسلامية العظمى، في حين لم يكن لهم عهدٌ بأيّ تاريخ حضاريّ مشرق، بل كانوا يرزحون تحت أغلال الأوهام والخرافات والأساطير والعادات السيّئة.

وخيرُ من يوضّح تلك الأوضاع والأحوال، هو الإمام علي عليه السلام في الخطبة الثانية من «نهج البلاغة»:

« والناسُ في فِتَن انجذم[1] فيها حبلُ الدين، وتزعزعت سواري[2] اليقين، واختلف النجرُ[3]، و تشتّت الأمرُ، وضاق المخرجُ،وعمي المصدرُ، فالهدى خامل، والعمى شامل، عصي الرحمن ونُصر الشيطان، وخُذِلَ الإيمانُ فانهارت دعائمهُ، وتنكّرت معالمُه،ودرست [4] سبلُه،وعفت شركه[5]، ... فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون في خير دارٍ وشرّ جيرانٍ، نومُهم سُهود، وكُحلهم دموع، بأرض عالمها مُلجَم وجاهلها مُكرَم».

١. إنقطع.
٢. الدعائم.
٣. الأصل.
٤. إنطمست.
٥. الطرق.

وفي الخطبة ٢٦ قال عليه السلام:

«إنّ الله بعث محمّداً صلى الله عليه وآله نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شرّ دين وفي شرّ دار منيخون[1]، بين حجارة خُشن[2]، وحيّات صُمّ[3]، تشربون الكَدر، وتأكلون الجشِب[4]، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبةٌ، والآثام بكم معصوبة [5]».

و قال عليه السلام في الخطبة ٩٥:

«بعثه صلى الله عليه وآله ، والناس ضُلاّل في حيرة، وحاطبون في فتنةٍ،قد استهوتهم الأهواءُ،واستزلّتهم الكبرياءُ، واستخفّتهم[6] الجاهلية الجهلاءُ، حَيارىٰ في زلزالٍ من الأمر، وبلاءٍ من الجَهل، فبالَغَ صلى الله عليه وآله في النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا إلى الحكمة والموعظة الحَسَنة».

وأيضاً في الخطبة١٥١: قال عليه السلام:

«أضاءت به صلى الله عليه وآله البلاد بعد الضلالة المظلمة، والجهالة الغالبة، والجفوة الجافية، والناس يستحلون الحريمَ،ويستذلون الحكيمَ، يحيون على فترة[7]، ويموتون على كفرة».

وقد أكد تلك الأحوال والحياة، أيضاً، جعفرُبن أبي طالب، عندما خطب

١. مقيمون
٢. جمع خشناء من الخشونة.
٣. التي لا تسمع لعدم إنزجارها بالأصوات.
٤ الطعام الغليظ.
٥. مشدودة
٦. طيّشتهم.
٧. على خلوّ من الشرائع.